ملخّص المحاضرة رقم (6): مناهج البحث في التراث

يعد المنهج الموجّه والمحرك الأساسي لموضوع البحث، إذ يستحيل بدونه الوصول إلى نتائج دقيقة ويقينية، فالتزامنا بمنهج البحث يجنبنا الوقوع في التذبذب والتيه وعشوائية النتائج، وفي هذه المحاضرة التي بين أيديكم، سنسعى للإجابة عن الأسئلة التي تحيط بعنوانها المذكور أعلاه، وهي: كيف كان التراثيون أو العلماء القدامى يتعاملون مع البحث اللغوي، وما هي طبيعة المناهج المستخدمة قديما في البحث اللغوي عموما، وعند العرب خصوصا؟ وماهي ملامحها وخصائصها؟ كل هذه الأسئلة سنجد إجابات عنها في مضمون هذه المحاضرة.

1) البدايات الأولى لاستخدام المنهج في البحث اللغوي:

1-1) عند الأمم غير العربية: تشير الدراسات ومن بينها دراسة محمود سليمان ياقوت في كتابه (منهج البحث اللغوي) إلى أن الهنود كانوا السباقين في احتضان الدرس اللغوي عبر دراسة لغتهم الهندية القديمة (السنسكريتية) التي هي لغة كتابهم المقدس، وهي أقدم الدراسات التي وصلت إلينا والتي تعود بدايتها إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث اهتموا بوصف لغتهم وتسجيلها وتحليلها كما وردت في نصوصهم، فدرسوا أصواتها واشتقاق الكلمات ونحوها ومعجمها وغيرها، ووصلوا إلى نتائج مهمة ودقيقة فيما يخص خصائص وقوانين لغتهم، أثارت استحسان علماء اللغة المحدثين، وبالتالي نخلص إلى أنّ الهنود هي الأمة السباقة التي وضعت ملامح المنهج الوصفي الذي نادى به سوسير فيما بعد بقرون.

أمّا **عند الإغريق** فقد طغت الدراسة المعيارية على لغتهم، ومن خصائصها:

– أنّ الإغريق كانوا ينظرون إلى لغتهم نظرة مثالية، وأنّها أفضل لغات العالم، فرسموا لها معايير كما يجب أن تكون وليس كما هي في الواقع، حتى لا تفقد صورتها المثالية، فحددوا لها ضوابط صارمة لحمايتها من أشكال الانحراف، وكانوا ينظرون إلى لغتهم على أساس كونها ثابتة لا تتطور ولا تتغير، لأن التطور في رأيهم يؤدي إلى فسادها، وبالتالي لا يسمح لأحد بتغيير نظامها الثابت، فضبطوا نحوها بقواعد منطقية مبنية على نماذج لغوية محددة، لا يجب الخروج عنها، وبالتالي ظهرت ملامح المنهج المعياري واضحا عند الإغريق، وعموما كان هذا المنهج هو الطاغي تقريبا في الدراسات التقليدية عند الأمم بما فيهم **اليونانيون** في تلك الفترة التي اهتمت بجانب المكتوب على حساب المنطوق.

بعدها سادت الدراسات التاريخية والدراسات المقارنة في فترة ما قبل انبثاق منهج سوسير الذي اتّخذ توجها جديدا في دراسة اللغة، وقد أنجزت بعض البحوث التاريخية وأخرى لهدف مقارنة اللغات، حيث اهتمّ اللغويون بدراسة نصوص اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية، وأهملوا بذلك اللغات الحديثة كونها معرّضة للّتغير، لاعتقادهم بأن اللغات المكتوبة تمتاز بالثبات ما يسمح بدراستها على المنوال الصحيح. ولقد شهدت فترة نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تطورا ونضجا كبيرا في مفاهيم وآليات المنهج التاريخي وخصوصا على يد **العالم (غريم)**، ويختص هذا المنهج بدراسة التطور اللغوي عبر فترات وأزمنة متعددة ومختلفة، ورصد التغيرات التي طرأت على البني الداخلية للظاهرة والبحث عن أسبابها وتفسيرها.

وبالتزامن مع الدراسات التاريخية، نشطت الدراسات المقارنة التي كانت مصاحبة لها لحاجتها إليها، وسرعان ما تطورت ولقيت رواجا كبيرا في القرن التاسع عشر حيث عرفت نهضتها الحقيقية بفضل الدراسات الجادة التي قام بها **(العالم س.وليام جونز)** الذي كان قاضيا في المحكمة العليا في البنغال (الهند)، وهذا حين كشف الغطاء عن اللغة السنسكريتية القديمة ودرسها، فاكتشف وجود صلة وثيقة بينها وبين اللغات الأوربية واليونانية، وبفضل ذلك تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى فصائل وأسر لغوية لوجود أوجه تشابه كبيرة بينها، فافترضوا وجود أصل مشترك (لغة أصل) تفرعت منه تلك اللغات عبر مرور الزمن، أصل هندي أوربي بالنسبة لفصيلة اللغات الهندوأوربية، وأصل سامي بالنسبة لفصيلة اللغات السامية.

2–1) عند العرب: كان أول اتصال للعرب بالبحث اللغوي لدواعي دينية اجتماعية، فالخوف من تسرب اللحن إلى القراءات القرآنية وسوء فهم معناها، وتوافد الأعاجم إلى اعتناق الدين الجديد والحاجة إلى تعلم اللغة العربية على المنوال الصحيح والسليم خلق عند العلماء العرب حالة طوارئ، فأحسّوا بضرورة الإسراع في وضع ضوابط وقوانين للعربية، ورسم نحوها وتعليمه لأهلها ولغير أهلها، ما أدى إلى البحث في لغتهم ودراستها، ووضع منهج في كيفية البحث فيها لتحقيق مبتغاهم، مع العلم أن معرفتهم للمنهج لم تكن نظرية بمفهومها الغربي، بل كانت وسيلة إجرائية طارئة في بداية الأمر، فكان من أهم الإجراءات المنهجية المعتمدة مايلي:

– مرحلة جمع اللغة من مصادرها النقية الفصيحة، كالقرآن الكريم، وكلام العرب شعره ونثره، واستثنوا من ذلك الحديث النبوي بسبب اضطراب الرواية .

– التحديد الزّماني للمدونة الموثوق بفصاحتها كان من العصر الجاهلي إلى غاية نهاية القرن الثاني في الحضر(المدن) والقرن الرابع في المدر(بوادي الأعراب).

– كما قاموا بالتحديد المكاني لجمع اللغة من سبع قبائل يعتدّ بفصاحتها، كهذيل وأسد وتميم ... وغيرها، واستبعدوا القبائل الأخرى لأنها في نظرهم أكثر عرضة للفساد اللغوي لوقوعها على أطراف شبه الجزيرة العربية.

– الاستعانة بالرواة الموثوقين فيهم كالخلف احمر...

– اعتماد التحري وأسلوب الاستجواب أثناء مشافهة الأعراب للتأكد من سلامة لغتهم.

– مرحلة استقراء اللغة واستنباط القواعد، حيث اعتمدوا على ملاحظة ووصف المدونة واستقراء جزئياتها والنظر في الاستعمالات وتراكيب الكلام العربي، واستخلصوا منها أحكاما وقواعد لعلم النحو العربي.

– رفض كل الاستعمالات اللغوية التي تخرج عن المعايير والقواعد النحوية التي استنبطوها، حتى وإن كانت مسموعة من بعض القبائل أو اللجوء إلى تقديرها وتأويلها وفقا لتلك القواعد. وهو ما سبّب خلافات نحوية بين النحاة لاختلاف أساليبهم في الاستقراء والاستنباط.

– بعد التقعيد شدّدوا في الالتزام بالقواعد المستنبطة كمعايير لا يجب الخروج عنها، وقد تجلت النزعة المعيارية بوضوح في طريقة تعصبهم وتعليم النحو، كقولهم: قل ولا تقل، و–هكذا قال القدامى– ...الخ

وبالتالي، يظهر مما سبق عرضه، ن الإجراءات المنهجية التي اعتمدها العلماء القدامى في بحثهم اللغوي من أجل تأسيس علم النحو لصيانة اللسان العربي من

اللحن كانت دقيقة ومنظمة، حيث اعتمدوا أثناء الجمع والاستقراء على آليات المنهج الوصفي، لكن هدفهم الأخير هو وضع نحو معياري، وقد ظهر ذلك جليا في طريقة حصرهم للمدونة اللغوية ورفضهم الأخذ والسماع من غير القبائل التي حدّدوها، وأن يكون الاستعمال اللغوي وفقا للمعايير التي وضعوها.

وبالتالي؛ يمكن القول: أن النحاة العرب قد تبنوا منهجين في سعيهم لتأسيس علم النحو العربي تمثل في توظيف معالم المنهج الوصفي من أجل الوصول إلى تقنين وتقعيد النحو وفقا للمنهج المعياري لغرض التعليم وصيانة القرآن الكريم من اللحن.

أما فيم يخص معرفة العرب بالمنهجين التاريخي والمقارن، فكانت عرضية اقتصرت على مقامات ضيقة أو إشارات طفيفة، لانشغالهم بالدراسات القرآنية وتأسيس العلوم اللغوية، لهذا لم يهتموا كثيرا بعقد دراسات تاريخية معمقة أو مقارنة لأن اللغة العربية في نظرهم من أسمى وأقدس اللغات كونها لغة الكتاب المنزّل على خير الخلق، وكانوا قوم فصاحة وبلاغة ويعتزون كثيرا بلغتهم، عدا بعض الإشارات والوقفات التي استوقفتهم أثناء بحثهم اللغوي وانتبهوا إليه حين عادوا إلى استقراء لغة العصر الجاهلي وما بعدها، فاكتشفوا الدخيل والغريب وظاهرة النحت، ولقد أشار إلى ذلك كل من ابن جني في كتابه (**الخصائص**) والثعالبي في كتابه **(فقه اللغة وسر العربية)** وكذا السيوطي في كتابه **(المزهر)**.

كما وجدت بعض المقارنات التي سجلت عند بعض اللغويين العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي سجل بعض ملاحظاته في كتابه العين، لمّا لاحظ وجود شبه بين اللغة العربية واللغة الكنعانية، ورأى أنهما متضارعتان، كما أشار السّهيلي إلى

شيء من المقارنة بين العربية والسريانية والعلاقة الرابطة بينهما، قائلا: " وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، أو يقاربه في اللفظ"، وغيرها من الإشارات والملاحظات التي ذكرت عند غيرهما كابن سلام، وابن حزم الأندلسي وأبي حيان الأندلسي،[1] مما يدل دلالة واضحة على أن العرب كانت لهم دراية، ومعرفة باللغات الأخرى، وبالأخص اللغات السامية كالكنعانية والسريانية والحبشية وغيرها.

–انتهى–

[1]– لمزيد من التفاصيل، ينظر: محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، 2000م ، ص107.